أزمة الديموقراطيـــة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

هل آن لشمس الديموقراطية أن تترب ؟ هذا سؤال يطرح منذ أعوام فى معرض البحث والجدل ، ولكنه يغدو اليوم أشد خطورة ، ويشغل جميع الأذهان والضمائر الحرة : فالنظم الديموقراطيـــة تتحطم تباعا فى أمم كانت بالامس أشد الأمم تعلقا بالنظم والمثل الديموقراطية ، والحكومات الدستورية تختفى . تباعا من الميدان لتقوم مكانها حكومات طغيان شامل ، والحريات السياسية والاجتماعية القديمة تخنق وتختفى لتستأثر بها وتتصرف فيها أحزاب وجماعات سياسية جديدة تقوم مبادؤها ودعوتها على القوة القاهرة ، والديموقراطية تهتز اليوم حيثما استطاعت أن تبقى وتتسرب اليها عوامل الوهن والفساد : فهل يكون ذلك ايذانا بان صرح الديموقراطية غدا على وشك الانهيار ، وأن الديموقراطية تسير الى مصرعها النهائى فى المستقبل القريب ؟ هذا ما يتنبأ به أصحاب النظريات والمثل الجديدة القائمة على الطغيان الشامل ، والقومية المتطرفة ، وانكار النظم البرلمانية ، وخضوع الفرد المطلق ، والايمان بالقوة المادية ؛ أو بعبارة أخرى هذا ما يقوله دعاة الفاشستية والوطنية الاشتراكية الالمانية

والحقيقة أن الديموقراطية تجوز أخطر أزمة عرفت فى تاريخها . ويجب قبل كل شىء أن نعرف الديموقراطية بايجاز . فهى فى الاصل كلمة يونانية معناها « قوة الشعب » ، وهى مبدأ سياسى اجتماعى يقوم على المساواة التامة بين الافراد فى الحقوق والواجبات ، وغايتها الجوهرية أن يشترك الشعب كله فى ادارة الدولة أو بعبارة أخرى أن يحكم نفسه بنفسه ؛ والنظم البرلمانية أظهر وسائلها لتحقيق هذه الغاية . والديموقراطية الاوربية الحديثة ترجع الى الثورة الفرنسية . ولكنها لم تستطع ثباتا فى البداية ، واستمرت نحو نصف قرن تناضل فى سبيل مثلها ، ولم تتوطد وتزدهر الا فى أواخر القرن التاسع عشر ، بيد أنها لم تتقدم الا فى غرب أوربا . أما فى شرق أوربا ووسطها ، فقد كانت الملوكيات القديمة فى روسيا وتركيا والنمسا والمجر وألمانيا تطاردها وتخمد مثلها بكل ما وسعت . ثم كانت الحرب الكبرى ، فانهارت الملوكيات القـــديمة الطاغية ، وقويت المثل والمبادىء الديموقراطية ، وظفرت الديموقراطية باقامة نظمها فى الجمهوريات الجديدة الفتية فى روسيا ، والمانيا ، والنمسا ، وتشيكوسلوفاكيا ، وبولونيا . أما اليوم فماذا بقى لها من هذا الظفر ؟ لقد كان ظفر الديموقراطية فى روسيا كالبرق الخلب ، وكان اسما بلامسمى فلم تمض أشهر قلائل حتى ظل طغيان البلشفية مكان الطغيان القيصرى القديم ، يخمد جميع الآراء والحريات الخصيمة ؛ ولم تثبت الديموقراطية طويلا فى بولونيا ، حيث وثبت العسكرية وفرضت سلطانها على الجمهورية الجديدة ، واتخذت من الحياة النيابية ستارا تملى من ورائه ارادتها . أما فى المانيا والنمسا فقد استطال هـــذا الظفر أعواما طويلة ؛ واستطاعت الديموقراطية أن تنشىء الجمهورية الالمانية مكان الامبراطورية القديمة ، وأن توطد دعائم الحريات الديموقراطية ، وأن تقود مصاير الشعب الالمانى خلال الازمات والخطوب التى تعاقبت من جراء الحرب والهزيمة مدى أربعة عشر عاما ، ولكنها سقطت أخيرا صريعى الاشتراكية الوطنية والطغيان الهتلرى ، ومهدت لمصرعها بخلافها الداخلى ؛ ومنذ اسابيع فقط لقيت مصرعها فى النمسا بعد أن اقامت فيها الجمهورية ، وتولت حكمها وقيادتها فى أعوامها الاولى ، ولبثت خمسة عشر عاما قوية مرهوبة الجانب . واما فى ايطاليا التى تمتعت منـــذ وحدتها بالحريات الديموقراطية فى ظل الملوكية الدستورية ، فقد غاضت الديموقراطية عقب الحرب بضربة سريعة ، وقامت فيها الفاشستية منذ اثنى عشر عاما تخمد كل الحقوق والحريات القديمة ، وتتحدى الديموقراطية فى العالم كله ، وتنوه بقواها السياسية والاجتماعية ، وتسير فى ميادين السياسة والاقتصاد من ظفر الى ظفر ، وتقدم القدوة والارشاد لكل نزعة أو حركة طغيان مماثلة .

فالديموقراطية تجوز فى الواقع مرحلة عصيبة ربما كانت تنذر انحلالها ومصرعها النهائى . بل إنها فى البلاد التى مازالت فيها راسخة وطيدة الدعائم تتخبط فى خضم من الصعاب ، وتتنسم اختلال مواريثها لخصومها مجال الاتهام والانتقاص . ففى فرنسا ، مهد الديموقراطية الحديثة ، تشتد الحملة على النظم الديموقراطية والحياة النيابية لما كشفت عنه الفضائح المالية الاخيرة (فضائح ستافنسكى) من فساد شنيع يتغلغل فى صميم الحياة العامة ، ويصم الحكومات الحزبية والهيئات النيابية بتهم الرشوة واختلاس أموال الشعب ، ويصم القضاء والبوليس بفساد الذمة والتستر على الجناة ؛ ويقول خصوم الديموقراطية من

الملكيين والفاشست ، إن مثل هذه الجرائم لا يمكن أن ترتكب بمثل هذه الجرأة وهذا الاغراق الا فى ظل الحياة السياسية الحزبية وفى ظل نظام تكسب فيه النيابة عن الشعب بقوة المال والنفوذ، وغدت فكرة الدكتاتورية من الحلول المحتملة التى تطرح اليوم فى فرنسا كوسيلة لانتشالها من هذه الفوضى، وغدت هيبة الديموقراطية هدفا لاشد الحملات. وفى انكلترا أعرق الأمم الاوربية فى النظم والحريات الديموقراطية ، يهمس اليوم بكلمة الدكتاتورية ، وتلقى المبادى. الفاشستية قبولا من الشباب الانكليزى ، ويوجد اليوم فى انكلترا بالفعل حزب فاشستى صغير لم يحرز بعد أهمية سياسية ، ولكنه يعتبر رمزا حيا لأثر الفاشستية فى انكلترا . ولم تحرز الديموقراطية فى الاعوام الاخيرة الى جانب هذه الأزمات والخطوب أى ظفر أو تقدم حقيقى الا فى اسبانيا ، حيث سقطت الملوكية القديمة ، لتقوم مكانها جمهورية جديدة مشبعة بالمثل والاماني الديموقراطية؛ بيد أن الجمهورية الفتية مازالت تعانى صعابا وأزمات تكاد تصدع بناءها

فما ذا يكون مصير الديموقراطية ازاء هذه الخطوب ؟ يقول أنصار الفاشستية والطغيان إن الديموقراطية لا تستحق الحياة لأنها برهنت منذ الحرب انها ليست أهلا لحكم الشعوب فى ظروفها واتجاهاتها الجديدة ، وانها دفعت الحريات السياسية والاجتماعية إلى حدود الفوضى ، وسخرت الشعوب لاهوائها ؛ وان الحياة البرلمانية أصبحت مظهراً عقيما من مظاهر التمثيل النيابى ، ولا تعبر عن ارادة الشعب الحقيقية ، وأنها تغدو فى كثير من الاحيان عقبة فى سبيل الاداة الحكومية تمنعها من العمل المجدى . وقد يجد أنصار الفاشستية فى تاريخ الحكومات الديموقراطية ما بعد الحرب كثيراً مما يؤيد هذه التهم ، ولكنهم يخلطون دائما بين المبادىء الديموقراطية وبين الصور المختلفة التى تطبق بها هذه المبادىء . فهذه المطاعن قد تلحق بعض النظم ووسائل الحكم التى تقوم على الفكرة الديموقراطية ، ولكنها لا يصح أن تنسب الى الفكرة ذاتها ، واذا كانت الاحزاب والحكومات الديموقراطية قد ارتكبت كثيراً من الاخطاء فى ألمانيا وايطاليا ، واذا كانت توصم اليوم فى فرنسا بكثير من العيوب والتهم ، فانها ما زالت فى انكلترا والسويد مثلا تعمل فى ظل الملوكية بقوة وبراعة وتدلل على أنها أمثل طرق الحكم المستنير العادل . والفاشستية لا يمكن أن تزعم انها بريئة من العيوب ، فهى أولا أبعد صور الحكم عن تحقيق العدالة وصون الحرية ، لانها تقوم على القوة المادية ولا تعف عن ارتكاب أشنع وسائل العنف تحقيقا لسيادتها ، ويكفى أن نشير فى ذلك الى ما ارتكبته الفاشستية الايطالية فى أعوامها الأول من الجرائم والاعتداءات المثيرة ، وما استعملته من وسائل البطش والارغام قبل أن تثبت اقدامها وتفرض ارادتها على الشعب الايطالى ، ويكفى أن نستعرض ما ارتكبته الاشتراكية الوطنية الالمانية منذ ظفرت بالحكم من ضروب السفك والعنف والانتهاك والمطاردات السياسية والدينية الوضيعة ، لتفرض مبادئها وارادتها على الشعب الالمانى . وهذه الوسائل الهمجية التى تلجأ اليها الفاشستية دائما فى تحقيق سيادتها حيثما استطاعت أن تشق طريقها لا يمكن أن ترتفع من الوجهة المعنوية الى مستوى المثل الرفيعة والوسائل السلمية الحرة التى تقوم عليها الديموقراطية وتعمل فى ظلها . ومما يلاحظ أن الفاشستية شعورا منها بهذا الضعف المعنوى تحاول أحيانا أن تستتر وراء بعض المظاهر الديموقراطية ، فترى الفاشستية الايطالية مثلا تحتفظ بالبرلمان حينا وتبقى على بعض صور الحياة النيابية ، وتستخدم فكرة النقابات ؛ وترى الفاشستية الالمانية (الاشتراكية الوطنية) تجرى الانتخابات وتتظاهر باستفتاء الشعب فى الحصول على تأييد أغلبيته الساحقة لتحقق بعض أغراضها السياسية . وقد تتفوق الفاشستية على الديموقراطية أحيانا بالعمل السريع وتحقيق بعض المظاهر والغايات السياسية والاقتصادية التى عجزت الديموقراطية عن تحقيقها ، كما حدث فى ايطاليا مثلا حيث حققت الفاشستية الايطالية كثيراً من الاغراض والنتائج العملية القيمة ، ولكن هذا النجاح المادى يحقق فى معظم الاحيان على حساب الحريات والحقوق الشعبية ، وليست وسائله مما يحمد دائما .

لقد انتصرت القوى الرجعية على الديموقراطية فى إيطاليا والمانيا والنمسا ؛ وقد تنتصر فى غيرها غدا ، وربما بقيت الديموقراطية أعواما أخرى تعانى هذا الضعف والانحلال . ولكن هذه الفورات الرجعية لا تقوم على مثل راسخة ، ولا تستمد بقاءها الامن القوة المادية ، وهى فى الغالب وليدة ظروف وعوامل مؤقتة ، فمتى تطورت هذه الظروف والعوامل فقدت اسباب الحياة . والتاريخ يعيد اليوم نفسه فى اوربا القديمة . ففى اوائل القرن الماضى ، على أثر انتهاء الحروب البونابارتية ، اجتمعت كلمة العروش الاوربية القوية على سحق جميع النزعات والحركات الحرة ، والتمست لذلك عقد محالفة عرفت بالمحالفة المقدسة (اواخر سنة ١٨١٥) عقدت بين قياصرة روسيا والمانيا والنمسا ، واتخذت فى المبدأ صبغة ميثاق

للعمل على تأييد السلام ، وإقامة العدل ، وبث الاخاء ، ولكنها نظمت وعقدت فى الواقع للتعاون على إخماد الحركات الحرة التى أخذت تضطرم من غرب اوربا الى شرقها ، وتبدو فى مطالبات عنيفة بالحريات الدستورية . وكانت الحروب البونابارتية قد شغلت اوربا حينا عن التفكير السياسى ، فخمدت الريح الحرة التى اثارتها مبادىء الثورة الفرنسية ، ولكن الجيوش الفرنسية الغازية كانت تحمل أينما حلت طرفا من هذه المبادىء ، فلما هدأت العاصفة التى أثارها نابوليون ، عادت الافكار الحرة والاماني الدستورية تشق سبيلها فى معظم الامم الاوربية ، ومن ثم كان اجتماع العروش القديمة على مقاومتها وسحقها . وقد انضمت معظم الدول الاوربية الى المعاهدة المقدسة ، وطبقت غير بعيد فى المانيا والنمسا حيث قيدت حرية الصحافة ، وفرضت الرقابة الرسمية على الجامعات ، ولكن هذه الجبهة القوية التى نظمها الطغيان لمقاومة الحريات الشعبية لم تغن شيئا ، ولم يمض ربع قرن آخر حتى كانت معظم الدول الاوربية تضطرم بالثورات والفورات التحريرية ، وكانت القوى الرجعية ترغم على بذل المنح الدستورية المختلفة . وقد استمر هذا الصراع بين الطغيان والديموقراطية طوال القرن التاسع عشر ، وانتهى بظفر الحريات فى معظم الامم الاوربية .

ونحن اليوم نشهد هذا الصراع كرة أخرى . ولكنه يتخذ اليوم صورة جديدة . فالقوى الرجعية لا تستند اليوم الى العروش والحق الالهى ، ولكنها تتشح بأثواب شعبية ، فالفاشستية تزعم فى ايطاليا والمانيا أنها تقوم بارادة الشعب وتسير طبقا لها ؛ وتخشى ان تبدو مجردة فى ثوبها الحقيق ؛ وهذا دليل على أنها رغم ظفرها المؤقت مازالت تخشى قوة الديموقراطية الخفية . ونحن مازلنا نؤمن بمستقبل الديموقراطية وقوتها . واذا كانت الديموقراطية قد استطاعت ان تصمد طوال القرن الماضى لجميع القوى الرجعية التى هاجمتها وقاومتها مع أنها لم تكن قد استكملت يومئذ كل نموها وقوتها ، فانها اليوم وقد رسخت مبادؤها ومثلها فى جميع الامم الاوربية واقامت لها صروحا قوية شامخة ، وأضحت قوام الحياة العامة فى كل بلد ، لا يمكن ان تستكين طويلا الى عدوان الا ان ، ولا بد أن تنهض غير بعيد من عثرتها ، وتستعيد كل قوتها وسلطانها ، يوم تنفض عنها غبار هذه المفاسد الشكلية التى اسبغت ربا على هيبتها ؛ ويوم تنبذ ذلك الخلاف الذي فت فى قواها ومكن لخصومها . ؟

محمد عبد الله عنان

مضى عام

للآنسة سهير القلماوى

تسارعت الأيام فى سيرها الآلى المنظم السريع . الأيام الطويلة المملة ، والأيام القصيرة الطائرة ، كلها غرقت فى بحر الفناء على ألا تعود . وانقضى العام فاذا الذكرى تتهادى حتى تقف أمامى ، ثم تمد يدها لتأتى بأجزائها المنزوية فى مخيلتى تستكمل بها صورتها المؤلمة . فاذا الصورة هى هى كما كانت منذ عام ، واذا الألم لها وإن خففه سلطان الزمان الذى لا يقهر ، إلا أنه ما زال لاذعاً منهلا عن كل شىء - واه .

كان صباح العيد منذ عام ، فاجتمع أفراد الأسرة كلهم فى بيت الوالدين ، اجتمع الأخوات والأخوة ، والأزواج والأولاد والأخوال والأعمام ، واصطفوا جميعا على مائدة الافطار ، وكلهم وجوههم مشرقة مستبشرة . وكانت هى بينهم - ومتى لم تكن بينهم ولو بجسدها - ولكنها كانت تفكر وتقدر . تضحك معهم وتبتسم لابتسامهم ، ويشرق وجهها لاشراق وجوههم ؛ ولكن نفسها كانت تتألم يائسة ، وعقلها مرتبك ، يقدر ويفكر ، ويقرر وينثنى عما قرر ، ثم يعود فيقرر ثانيـــة ، فاذا القرار هو هو . وتقلب الاحتمالات والمنتظرات ، تستعرض فى خيالها الساعات المقبلة ، وقد نظمتها حسبما ظنت أن ستكون . ماذا لو أنفـذت قرارها ؟ ثم تعود فتثنى عنه من جديد ؛ لم يرقها ما قدرت ، ولكن أى مخلص غيره ؟ وأخيراً ، لا بد من القرار الأول ، لا بد منه .

لم يلاحظ عليها الحضور شيئا ، فقد كانت الحركة التى تأتيها فى رواحها ومجيئها لخدمتهم - لأن أمور المنزل أصبحت كلها لها بعد زواج أختها - التى كانت تساعـــدها كثيراً على إخفاء ما بها . وانتهى الافطار فانتشروا فى الدار ، وأصوات الاطفال المرحة الصاخبة تملأ أسماعهم . وانتهزت هى الفرصة وصعدت الى حجرتها . خافت أن تعود الى التفكير فترتبك من جديد ، ولقد سئمت الحيرة ولا بد أن تنجو منها ، لقد كانت تلهب رأسها .

وصعدت وراءها أختها تناديها ، وناداتها فاذا بها قادمة نحوها